ويسألونك عن الأندلس

التنوير

قل : إن وطن العرب كله أندلس ، ومملوك الطوائف مازالوا يتناحرون فى كل مكان ، والفتنة قامت عند مقتل الخليفة عثمان . قامت ولم تقعد بعد . وعلى يد كل منا شيء من دم ذى النورين ، لأن الذين قتلوه اطمأنوا فى ذلك اليوم النورين فعلا : نور العدالة ونور الحرية .

أثناء عملى فى أسبانيا كانت متعتى الكبرى زيارة الأندلس – جنوب أسبانيا – والإلمام بقواعد الحضارة الإسلامية فيه : قرطبة وأشبيلية وغرناطة ومالقة ، ومايتصل بها شمالا بشرق من أعمال المرية ومرسية وبلنسية .

وتعود الكثيرون من رجالات العرب أن يزوروا أسبانيا لأصحابهم فى رحلة الأندلس وأحدثهم عن الآثار والتاريخ والمجد الذى كان ، ثم عصفت به تصاريف الزمان .

ولكارة ماحكيت الحكاية أصبحت كعارف المكان فى مطاعم البداية ، يقترب من الموائد ويشاركه يساره ويقرسه يمينه ، ويعرف لتطاعمين من المذاق واخين نفسى اللحن ، يعزفه كل ليلة عشرات المرات من حنى العشرين إلى السبعين .

ولكن عازف البداية يعرف لأهل الهوى واخية ، أما أنا فقد كنت أردد نفس اللحن على آذان كثيرة لاتعرف الهوى أو اخية ، فقد كانت غالبيتهم من علية القوم ، أهل سياسة وجاه وألقاب ، فيهم وزراء ورؤساء وزراء ، وصاحب جلالة ، أعدت له سفارته قبل مجيئه كل مطالب الزيارة من أماكن المبيت وسيارات ومقابلات ، ووضعتى فى البرنامج كأنى جزء من لوازم المتعة خلالها .

وكنت ذات مرة وحدى فى غرناطة . حملنى الضيق من عرب اليوم إلى الحنين الأنس عند عرب الأمس .

حقا إن عرب الأمس ليسوا أحسن من عرب اليوم ، ولكن الأولين على الأقل كانوا عظماء وهم يستحقون العظمة والرثاء ، والأموات دائما أفاضل لأنهم أموات .

كنت فى فندق والشمس ترقرق وأنا أحب لأنه يطل على الحمراء ثم إنه منسوب إلى رجل أحبه جميعا . فقد كان سفيرا للولايات المتحدة فى مدريد ثم احتشد سحر الماضى الأندلسى ، فاستقال واعتزل فى غرناطة ، وألف « أقاصيص الحمراء » ثم ازدادت فتنته بتاريخ العرب فكتب كتابا قيما عن الخلفاء الراشدين سماه « عظماء محمد » .

لذا أنا أتأهب للخروج من الفندق ، إذا بالهاتف يصاصل ، وسفير

د . حسين مؤنس

دولة عربية على الطرف الآخر من الشارع يقول : إنه حضر من مدريد فى مهمة خطيرة صاحب المعالى ، لا أدرى وزير ماذا وإن معالى الوزير يبيط من سيارته بعد ساعة لكى يشرف بصحبته فى رحلة التاريخ والمجد .

وأنا أعرف أن أصحاب المعالى هؤلاء يعتقدون أن من لوازم المعالى أن ينتظرها الناس ساعات حتى تهل عليهم بطلعتها البهية ، ولما كنت قد شبعت من تلك الطلعات وبهائها فقد قلت للسفير :

– معذرة لابد أن أذهب الآن ، فأنا على موعد مع الأستاذ جيسوس برموديث كبير الأثريين فى الحمراء لأننا نمارس معا تفرقى سقف قاعة السفراء ، قلت وإنى سأكون فى تلك القاعة طول الصباح ، ويشرف معالى الوزير عندما يشاء .

– ولكن معالى الوزير يجب أن تكون فى معيتى .

– ياسيدى إنى لاأحب أن أكون فى معية أحد ، ولكن فى مصر بالذات قد يقرؤ لتخلص من « المعية الخديوية » و « المعية السلطانية » و« المعية الملوكية » وكل معية على وجه الأرض . أنا فى قاعة السفراء ياسيدى السفير فتفضلوا حين تشاءون .

ومعالى الوزير الذى كان ينبغى أن يهبط بعد ساعة وصل بعد ثلاث ساعات . وصل ثالثة عاشرة . كما فى قاعة السفراء التى تسمى أيضا بقاعة قارش ، إنها من إنشاء السلطان محمد الغنى بالله ثامن سلاطين غرناطة وأبيه أبى الحجاج يوسف بن إسماعيل سابع سلاطين غرناطة . الأب حكم خمس سنوات هجرية ٧٥٥ – ٧٦٠ (١٣٥٤ – ١٣٥٨) ميلادية وابنه الذى أنشأ هذه القاعة البديعة حكم مدة هجرية واحدة ٧٦٠ – ٧٦١ (١٣٥٨ – ١٣٥٩ ميلادية) هذان الأثنان لم يمنعهما يوم من السعادة لأن بيت الملك فى غرناطة كان ملئ بمنطق الأفاعى . كل أفعى تتوس الأخرى لتصل برأسها إلى الهواء .

ولكن قاعة قارش هذه قطعة من الفن العربى الرائع إنها قاعة فسيحة جدرانها كلها محلاة بأقاريز من الزخارف والكتابات العربية من كل شكل ولون يمكن تصوره جانب القاعة المطل على تل الحمراء كله شرفات مزدوجة . السقف الذى تقف تحته أروع سقف نقشه فنان مسلم . إنه يتألف من فراغ أزرق فى الوسط تحيط به نطاقات من الوحدات الزخرفية ، كل واحدة لها طابعها وشكلها ولونها . أتدرى من أين استلهم الفنان العربى هذا التصور للسقف ؟ من سورة الملك أو سورة تبارك وهى السابعة والستون من سور القرآن الكريم .

« تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير .

الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور .

الذى خلق سبع سماوات طباقا .

ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت

فارجع البصر هل ترى من فطور

ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير

ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح .

وجعلناها رجوما للشياطين

وأعتدنا لهم عذاب السعير »

(الآيات ١ – ٥)

فقد تصور الرجل السقف وكأنه قبة السماء .

وفى وسط القبة ترك فراغا أزرق بلون السماء ، وتركه دون زخم لأنه رمز الله سبحانه والله لايرسم ولايصور .

ثم أحاط ذلك الفراغ بنطاقات من المجموعات الزخرفية ، كل مجموعة تحتوى وحدة فنية قائمة بذاتها .

وهذه النطاقات فى مجموعها سبع ، هى – فى تصوره – السماوات السبع ، فالنطاق الأول أو السماء الأولى المحيطة بعرب العرش هو نطاق الملائكة الأطهار الذين يحملون رسالات الله وأوامره إلى الأنبياء والرسل لكى يحملوها إلى الناس .

والنطاق الثانى هو نطاق الملائكة الصغار الذين يحيطون بالملائكة الكبار وعرب العرش ويسبحون لله بكرة وأصيلا .

إن محيى الدين بن عربى ونفرا آخر من الصوفية يسمون أولئك الملائكة بالكروبيين . وقد سموا بذلك لأنهم فى كرب متصل . والكرب عند ابن عربى هو التعب المبارك الذى تحسه الملائكة الذين لايتوقفون عن التسبيح والصلاة .

هذا اللفظ « الكروبيون » انتقل إلى الفن الأوربى ، فسموا به الملائكة الصغار . كالأطفال الذين تراهم بأجنحتهم فى لوحات رونوار ورافاييلو وليوناردو دافنشى من أساطين أهل الفن فى عصر النهضة الإيطالية . أخذوا التصور واللفظ ، فسموهم Cherubini وكيروبينى – وبالإنجليزية

والعربية Cherubins)

وخارج هذا النطاق نطاق من خمس وحدات زخرفية كبيرة الواحدة منها تتألف من عشرات النجوم ذات الأشكال العجيبة .

هذا هو نطاق الأنبياء الخمسة العظام وهم ، أولو العزم من الرسل ، الذين ذكرهم الله سبحانه فى الآية ٣٥ من سورة الأحقاف : (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم) .

وهؤلاء الخمسة عندنا هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم .

ويلى ذلك نطاق الأقطاب ، وهم هنا أثنا عشر قطبا ، ويذهب بعض الصوفية إلى أن الأقطاب أربعة فقط .

وبعد ذلك نطاق الأبدال ، وهم بدائل الأقطاب كلما نزل قطب حل محل بدل . وهكذا إلى آخر الطبقات

وقد وضع الفنان هذه الطبقات على نحو لا يمكن للشياطين أن تنفذ منه إلى السماء السابعة . لأن النجمات والنجيمات الزخرفية بدت للناظر كأنها مصابيح ترجم الشياطين وتردعها فأنت لا تجد بينها فرجات (أو فطور) وإذا تأملتها مرة بعد أخرى ارتد إليك بصرك خاسئا وهو حسير . وأنت مهما تأمل فى خلق الرحمن فلن ترى فيه من تفاوت !

هذا السقف إذن قطعة من الفن وقطعة من الإيمان وهو قطعة واحدة من ألوف قطع الفن التى خلقها لنا الفنان العربى .

ثم نجد من ينهج لسانه إعجابا بلوحات روبرز ورافاييل ويقول ذلك ساخرا : أين هذا السمو من مقاصف الزخارف العربية الخالية من الحياة .

هؤلاء جميعا نقول : مكانكم يا قوم ، ولا تخرصوا فيما لا تعرفون فإن زخارف الفن الإسلامى أشكاله الهندسية وتخطيطه وتوريقاته (من ورق الشجر) أعمال فنية ذات أبعاد فنية لا تقل عما تعارفون به من أعمال الآخرين .

ولكنا لم ندرس هنا بعد حتى نخوض فيه .

والفن الإسلامى الأصيل خالص صاف مجرد عن التجسيم فهذه الأشكال الهندسية والخطوط ذات الزوايا المتقاطعة وهذا التصرف البديع فى أشكال ورق الشجر ، وورقة العنب خاصة ، تطلق الذهن من أطواله فيتصل مع الخيال إلى ما لا نهاية وقد قال أحد المفسرين فى تفسير قوله تعالى فى سورة الحديد : « هو الأول والآخر » إنه الأول بلا بداية نعرفها ، والآخر بلا نهاية نراها .

وهنا يقترب الفن الإسلامى من الله سبحانه ، وقارن ذلك بتصوير ليوناردو دافنشى لله سبحانه على سقف الكنيسة السكستينية فى صورة رجل بلا ملابس .

ولم يكن قد بقى من الوقت عندما وصل صاحب المعالى إلا ساعة زمن تنتهى بعدها الفترة الصباحية ، فى الساعة الواحدة ظهرا مما الخروج ، واستكثار معاليه ذلك وعده قلة ذوق وانعدام لياقة ، لما هكذا نعامل المعالى وأصحابها .

ولكنا مرجئا فى النهاية لأن الوزير الفج آخر الأمر أن معاليه تنتهى عند حدود بلده ، أما خارجها فأقصى ما يحتمل عليه هو لقب اكسلانس ، والسفير بطبيعته اكسلانس ، ومع الاكسلانسين هنا تناول الغداء فى مطعم جميل يقع فى طرف حدائق جنة العريف المتحفة بقصور الحمراء .

وعندما استقرينا المقام أمام الاكسلانس يحول بصره فى المنظر الجميل أمامنا : سفح تل الحمراء تغطيه الخضرة وأسفل التل يجرى نهر غرناطة وهو نهر هادىء فى خانق عميق يليه تل آخر هو تل البازين ، ونظر فى خريطة أمامه وقرأ بصعوبة « كويستا دل شايت » وسأل :

– ماذا يعنى هذا ؟

– الكويستا يا سيدى مصطلح إسبانى دخل مصطلح الجغرافية العالمية ، ويراد به الصعد إلى الهضبة والجغرافيون المصريون يقولون : « كويستا الصحراء الشرقية » ، والصعد إلى قمة جبل موريا وهى قمة الصخرة فى القدس يسمى كويستا القدس ، أما الشايت فهو لفظ عربى محرف ، وأصله الجياس أى ضياع الجبس ، لأن أهل غرناطة كانوا يسمون فى

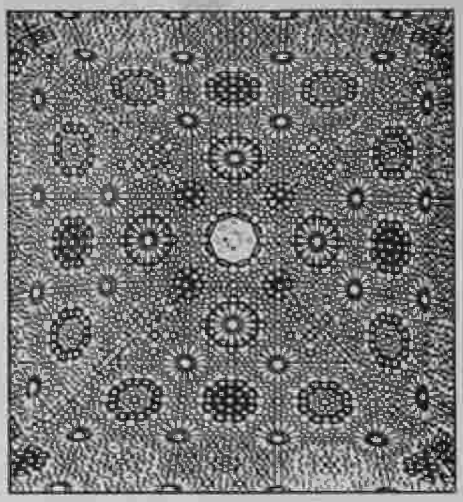

سقف قاعة السفراء فى الحمراء . الوحدات الزخرفية كلها رموز لمعان إسلامية .

قاعة السفراء من الخارج مصورة من بهو الريحان . هذه الحجيرة وزرقة السماء والماء والعقود العربية تؤلف وحدة فنية .

منظر عام لغرناطة أخذ من تل الحمراء . أعالى نهر قرطبة ثم حى البازين .

الإعالة : كما تقولون فى لبنان فكما يقول بعضكم القبيرة بدل القاهرة . كانوا فى غرناطة يقولون يجب الرحلة يريدون باب الرملة والجيس يريدون الجياس ومن هنا أتى لفظ شايت .

– ومن هو هذا الجياس هذا حتى يطلقون اسمه على موضع جغرافى ؟

– كان باسيدى رجلا يعمل فى الجبس والبناء أى أنه كان مقاولا فى مصطلحنا الحديث . ومازالت داره السماة بيت الجياس (لا كاسا دل شايت) باقية إلى اليوم ، وفيها تقوم مدرسة الأبحاث العربية فى غرناطة .

وبينما أنا أتكلم مرت حسناء غرناطية ممشوقة القوام ، فانصرفت إليها عيون الاكسلانسات حتى خرجت من الباب ، فعاد الوزير إلى وقال :

– كل هذه البلاد كانت لنا ؟ ترى من المسئول عن ضياع الأندلس ؟

– معاليكم بالقديم .

فدمر الرجل وقال :

– أنا ، سبحان الله ، ومادخل أنا فى ذلك ؟

– عيناك يا اكسلانس تركت العلم واخذ ، وذهبت فى رحلة مع الأندلسية السمراء من الباب إلى الباب .

– هذه تاريخ يا أستاذ ، والخيال ليست كلها جد أو سيعة لقلبك وسيعة لربك ، ماعليك بتقولوا فى مصر .

أجل يا سيدى نقول ونقول ونصيح ، ولكن وزراء الأندلس ، زملاء معاليكم إذا يجهدون بالة الرد حديثى دافق ، وبقية الدهر ساعة القلب ...

وهذا البلد الذى تتحسر عليه يا أبو الشعب العربى من أمثال الجياس الذى تعجبت معاليكم من أن يخلد اسمه على كويستا ، بناه العمال والزراع والمجاهدون وأضاعه السلاطين وزراء السلاطين .

هذه الكويستا التى تتحدث عنها هى صفة تل البازين المقابل لتل الحمراء . فى حى البازين عاش الذين بنوا حضارة الأندلس ، وفى قصور الحمراء عاش الذين أضاعوها .

لقد رأيت معاليك ماصنعه يد صانع فنان عربى عندما صاغ درة سقف قارش ، أترى من الذى أضاع هذه الدرة وغرناطة كلها ؟

سلطان يسمى أبو الحسن على بن سعد هو التاسع عشر من سلسلة ملوك بنى نصر ، هذا الرجل كان متزوجا من سيدة عربية كريمة تسمى عائشة . أنجب منها ولدا اسماه أبا عبد الله محمد ، ثم زاغت عينه وراء جمساء أندلسية نصرانية تسمى ايزابيلا ، فتزوجها على كبر وأنجب منها غلاما ، وقام النزاع بين عائشة وايزابيلا التى أسلمت وسمت نفسها وطال الصراع بين ابن عائشة وابن فرنا بينما كان فرناندو وايزابيلا يقتربان من غرناطة بجيوشهما ، فى أثناء النزاع وقع أبو عبد الله بن فرنا أسيرا فى يد النصارى وتولى مكانه عمه محمد بن سعد الملقب بالزغل أى الدجاج ، فتصدى للاسبان ، وهنا أطلق الأسبان أبا عبد الله بن فرنا ليحيش من جنده ، فغلب عمه وتولى مكانه ثم لم يلبث محمد ابن فرنا أن سلم غرناطة للملكين فرناندو وايزابيلا فى ٢ يناير ١٤٩٢ ، وخاطر وزوجاه إلى وادى آش شمال غرناطة . ثم ذهب إلى المغرب حيث انتهت أيامه .

– وماشأن الوزراء هنا ؟

– هؤلاء الأمراء الذين حدثتك عنهم كانوا شبانا دون الخامسة والعشرين ، ولكن التدبير كله كان بيد الوزراء ، وأساءة ضياع غرناطة لا يسأل عنها الأمراء بل الوزراء ، بالضبط كما كانت مأساة الأمين والمأمون نتيجة الصراع بين الفضل بن ربيع وزير الأمين والفضل بن سهل وزير المأمون . هل تعرف مثلا بمعالى الوزير أن الأمين والمأمون ولدا توأمان فى الحادية والعشرين عندما قامت الحرب بينهما وأن فرق السن بينهما لم يزد على سنة شهور ؟ .

من غرناطة نمضى إلى قرطبة

زل قرطبة أنا فى بين

وبين هنالك مقهى صغير فى حارة ضيقة ترى منها باب جامع قرطبة . فى هذا المقهى واسمه الاسكتية – أى المسجد – أجلس وحدى وهى على باب المسجد وذهنى يسبح مع الماضى حيث قرطبة وأهل بيتى . قرطبة هنالك كلهم فقهاء وعلماء وكتاب وشعراء – يشاورن معاوية بن صالح أول الكبار بن فقهاء الأندلس ، ويبنون بانى عبد الله الجدانى آخر إمام لمسجد قرطبة ، وهو الذى أقام آخر صلاة بمسجد الجامع هنالك قبل سقوط البلد فى يد فرناندو الثالث ملك قشتالة سنة ١٢٣٦ .

ويسألونك عن الأندلس..

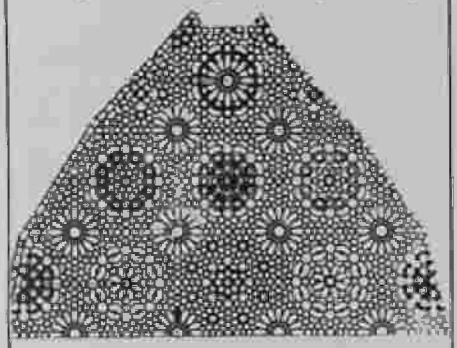

جانب من سقف قاعة السفراء ترى فيه الزخارف الزخرفية بصورة واضحة تساعد على فهم مغزاها

وفى هذا الجو اختفى أحمد نفسه مع فواطم مزوار الدنيا ، رحلة حرب وسياسة وفكر وشعر . عبد الرحمن الداخل ذلك الفتى العجيب الذى انتفض كالنسر من السماء على أرض أندلس وحلق مرة أخرى وفى مخالبه شلو الجزيرة كله . هذا صقر قريش . هل تعرف أنه شاعر ، وشاعر مجيد أيضا ؟ كل عواصف العرب شعراء . القصيدة الكبرى التى نظمها عبد الرحمن بن معاوية الداخل هى امارة قرطبة هذا الفتى الشريد الهائم بفراشه ملكا واسما . وجعل من معسكر رومانى قديم يسمى كوردوبا جوهرة اسمها قرطبة تزين الدنيا

وآخر العظماء من أهل قرطبة هو أبو محمد على بن حزم . رحمك الله يا ابن حزم

كان هذا الرجل أعظم علماء العربية على إطلاق . حتى الفارابى وابن سينا وابن رشد لم تكن لهم سعة علمه . كتب مئات . ولكن أعظم مافيه كان قلبه الحى النابض . هذا الرجل كان أسبانيا دون شك . ولكنه يقول إنه من أرومة عربية خالصة . وابن بسام فى « الذخيرة » يقول إن أصله فارسى . ولكن قلبه وعقله ولسانه كانت كلها عربية . كان فخورا بالعروبة بلا حدود . وكان مؤمنا بالإسلام فى عمق دون حدود أيضا . وكان مؤمنا بأندلسيته

إنه أسطورة . فى سن العشرين دخل مسجد قرطبة ليصلى فلم يعرف كيف يصلى وشعر بالخجل . فالفتى يدرس الإسلام . ولى سن المشرين لم يكن فى عالم العرب من يضاهيه علما بالإسلام وحضارته وثقافته . وعرف العرب كما لم يعرفهم أحد قبله ولابعده . اقرأ جمهرة انساب العرب . من الأشياء ثر العجب . إن العرب جميعا اسرته وأهله . وهو يعرف من تزوج من . وكم ولدا أنجبا ويقول لك ان الوالد الفلانى اصبح قاضيا فى خراسان . وأخته فلانة تزوجت القاضى فلان فى اشبونة البرتغال !

وأنبض لأزير المسجد الجامع . أكبر وأجمل مسجد بنى فى تاريخ الإسلام بناه على مدى ثلاثمائة سنة تسعة أمراء وخلفاء . كل منهم وضع إضافته على الجزء الذى بناه . إنه سيمفونية معمارية كانت تعادلها بحذب أوربا كلها أيام عبد الرحمن الناصر . هذا الخليفة المجيد الذى كسب الحرب أولا . فلما أعاد الوحدة لبلاده خاض معركة السلام . وأصبح وهو فى الخامسة والستين من عمره شيخ إسبانيا والبرتغال معا . فى بلاطه اجتمع أهل الأندلس المسلمون وملوك أسبانيا النصرانية

تجلس فى محراب المسجد . المحراب الوحيد الذى أعتقد أنه حقيقى حجرة من الرخام والمرمر . هنا كانوا يضعون مصحف عثمان الشهيد ذى النورين يوم الجمعة . وبعد الصلاة يرفعونه ويحفظونه فى المقصورة . نحن هنا فى حديقة من أعمدة الرخام والأقواس المزدوجة وفيض النور الداخل من الفريات العالية . القمرية « بكسر القاف » هى الناقذة الصغيرة أو طاقة النور فى قواعد قباب المساجد . سموها قمرية لأن الحمام القمرى يسكن عندها ويسبح لله سبحانه بترجيعه الشجى . فى القرآن الكريم ذكر كثير للطير الصافات التى تسبح لله سبحانه . « ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض » . والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه . « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات » . هذه هى الطير الصافات ؟ إنها الحمام الذى يسبح لله عند القمريات هنا أعمدة من الرخام فى دقة الأقلام تحمل أقواسا فوطية . هنا رقد الفن القوطى كله . تقلوه هنا ونسكه إلى القوط . ومالقوط ؟ لاشئ . مالأكثر مامرق من العرب . هذا الأندلس كله مرق منهم . ليس فى التاريخ شعب بين مجده بدماله ثم ضيعه وقعد يبكيه بدموعه مثل العرب . قارن بين الصورة التى تروح القلب التى وصل بها عمر بن الخطاب القدس . والصورة البشعة التى صاحت بها مدا فى أيامنا هذه . ونحن كما نقول للاغاثة مقبلات عرب

وعلى ذكر ضياع القدس . أتعرف كيف ضاعت قرطبة هذه ؟ قرطبة وردة بلاد أوربا فى القرن العاشر الميلادى التى وصل نورها إلى قلب الدنيا . وجمع بها راهبه الألمانى يسمى « بوحنا الجرزيزى » ، فخرج من خلوته فى وسط المانيا

وسار على قدميه نحو النور حتى وصل قرطبة . واعاد بابا اسمه جان الصورة قال . باللاتينية Ave Luci Cordubae سلام يانور قرطبة

أتعرف كيف خرجت من بلدنا وانتشت إلى عالم العرب أسبانيا ؟

آخر المعهد بالجزيرة كانت
بعد عرك من الزمان وضرس
فراها تسقول رايسة جيش
باد بالأمس بين أسر وحبس
وسفانيحها سفاليد ملك
باعها الوارث الضييع ببخس
خرج القوم فى كتائب صم
عن حفاظ ، كمركب الدفن عرس
وكسرا بالبحار نعشا ، وكانت
تحت آبائهم هى العرش أمس !

□

عرش كسرى وعادوا إلى عصور الجاهلية . عندما قتل معاوية بن أبى سفيان الرجل الشهم حجر بن عدى لأنه أبى أن يسكت على شتم على بن أبى طالب على المنابر . قال شيخ حكيم : والله لاتزال العرب تقتل بعد ذلك أبدا . عندما قتلوا الحسين بن على عند كربلاء . وقف رجل صالح على باب قصر يزيد بن معاوية وصاح : بالدار . فيك من كل دار جعل الله سلك فى كل دار . لاتدخلوا قصر الخبار . لأنه قطعة من النار . أرادوا قتله فصاح بهم إنسان . دعوه فهو مجنون . وتركوه لأنه مجنون . من ذلك اليوم يقول أصحاب السلطان إن كل ناطق بالحق مجنون . وكل الناس فى الماضى كان عليهم أن يدعوا الجنون لكى يستطيعوا أن يقولوا الحق

إن عالم الإسلام الواحد بأصحاب المعالى صنعته الأمة وحدها لأن الملوك لم يكن لهم عمل إلا تخريب دار الإسلام . تصور أنه لم يحدث مرة واحدة أن زار ملك مسلم ملكا مسلما آخر خلال العصور الوسطى كلها لأنه لو زاره لم يخرج من عنده حيا . كلهم كانوا ملوك طوائف . واقترفوا من الخطايات فى حق الأمة مالايوصف . بعد أن استرجعت أمة الإسلام القدس الشريف بقيادة صلاح الدين جاء ابن أخيه الملك الكامل ونازل لفردريك بارباروسا عن القدس . هذا السلطان الصعلوك تنازل بالقدس الشريف للملك الأشاق . كأن القدس ملك أبيه لكى يسلم له عرشه . كان ذلك سنة ١٢٢٩ . كان على الأمة أن تحارب من جديد لتسترد القدس . وتم لها ذلك سنة ١٢٤٤م .

لو يعلم الناس كم حارب المسلمون فى سبيل القدس ! لقد سقطت القدس فى يد الصليبيين سنة ١٠٩٩ واستشهد يومها من المسلمين سبعون ألفا . لقد خاض الإفرنج فى دماء المسلمين أهل القدس حقيقة لامجازا .

ظلنا نحارب بعد ذلك ١٥٠ سنة لكى تكون القدس لنا بصورة نهائية . ثم يقول الأعداء إن القدس لهم إلى الأبد !!

هذا يامعالى الوزير بعض ماصنعه بنا ملوك الطوائف بالأمس .

وانظر حولك اليوم فى عالم العرب فهل ترى غير ملوك طوائف ؟ مازال المعتمد بن عباد يحارب ابن الأفطس فى كل مكان من عالم العرب . إن عالم العرب كله أندلس ياسيدى الوزير . وفصول مأساة الأندلس تتكرر كل يوم فلماذا تعجب من أمر الأندلسيين وحدهم ؟

هل تذكر ابن حزم ؟ هذا الرجل الذى تولى الوزارة يوما اضطر إلى أن يتخلى عن الدنيا لكى يستطيع أن يخدم أمة الإسلام بعلمه وفى قرية صغيرة تسمى منت ليشم قرب رية فى جنوب غربى أسبانيا على الرجل نفسه . ليقرأ ويفكر ويكتب ويقول الحق دون أن يسمعه الملوك . كذلك على الفراق نفسه لكى يكتب « إحياء علوم الدين » .

* * *

لقد ذكرت فى مطلع كلامى هذا عازف الكمان لأهل الجنة على ضوء الشموع فى مطاعم البندقية .

الآن استرح فى مقعدك وأرسل نفسك على سجيتها لأننى سأعزف على أوتار قطعة الأندلس . الكلمات هنا لأحمد شوقى . واللحن لأمة العرب كلها :

آخر المعهد بالجزيرة كانت
بعد عرك من الزمان وضرس
فراها تسقول رايسة جيش
باد بالأمس بين أسر وحبس
وسفانيحها سفاليد ملك
باعها الوارث الضييع ببخس
خرج القوم فى كتائب صم
عن حفاظ ، كمركب الدفن عرس
وكسرا بالبحار نعشا ، وكانت
تحت آبائهم هى العرش أمس !

□